شيفرة المقريزي و لعبة الموت والحياة في رواية "نوار اللوز" لواسيني الأعرج

د/سليم بتقه
جامعة محمد خيضر /بسكرة

مقدمة:

الأصل في الريف أنه مستودع الرفاه، ففيه الإنتاج الفلاحي المتنوع، وفيه تبدأ دورة الاقتصاد وهو متكأ المدينة وسندها في أهم ما يتعلق بحياتها وهو الغذاء، وهو أس حركتها التجارية ورافدها في البقاء والنمو والاستمرار.

هذا من جهة الأرض وحقيقة أمرها، أما من جهة الإنسان فالأصل في أهل الريف أنهم على الفطرة، حيث الخير والصفاء والصدق والإخلاص والمروءة والكرم وسائر الفضائل... أما إذا طرأ طارئ على الأرض والإنسان في الريف فحرك جوانبه فتغيرت معالمه وأفضى إلى الضد فتلك صورة تقدر بقدرها، وتدرس في سياقها التاريخي للوقوف على أسباب هذا الأمر العارض.

الريف والمدينة في الثقافة المشوهة صورتان كليتان، أو هما مظهران كبيران متقابلان في اللاشعور الجمعي على الأقل عند طائفة كبيرة من الكتاب الجزائريين. فإذا ذكرت المدينة ذكر معها التقدم والترف، وكذا التحضر في الفكر والسلوك... ولا يكاد يذكر الريف إلا مقترنا بالبؤس والحرمان وشظف العيش، ولا يوصف أهل الريف إلا بالسذاجة والتخلف والبداوة الفكرية والسلوكية، إلى أن نسجت حولهم أحاديث السمر وصاروا مظهرا من مظاهر السخرية ومصدرا للضحك والتنكيت.

والريف في الإبداع الأدبي إما أن يجنح إلى المثالية الحالمة وهو ما يجب أن يكون في نظرهم، أو ما عليه ريف (الآخر) في الثقافات الأخرى، أو أن هذا الريف يرتد إلى الواقعية الفعلية، أي أن ما هو كائن ويراه الناس ويلمسونه ويحسون به، أو ما عليه ريف (الأنا) في الثقافة (الأنيّة)، ولا شك أن ثقافة المبدع بكل ما فيها من اتجاهات سياسية ودينية تجعل له مزاجا خاصا وتصورا متميزا في نظرته للأشياء والتعامل معها والتعبير عنها. فالرواية العربية قد عرضت لهذا الريف وصورته في أطره السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وما إلى هذا... كما أنها قدمته برموز مختلفة لتنتهي إلى رسم بياني إحداثياته من صنيع الكاتب مرة، ومن صنيع الأحداث والواقع مرة

أخرى، فأحدهم يحاكي والآخر يبدع، والثالث يعكس والرابع يعمل على التطهير.

لعبة الموت والحياة في رواية نوار اللوز:

تحكي الرواية قصة *صالح بن عامر الزوفري* الذي يعيش في حي "البراريك" في قرية من القرى الحدودية البائسة المسيردة التي تعيش على "الترابندو"، قرية مورس ضدها التهميش والإهمال إبان فترة الاحتلال وبعده، حيث ظل الحال كما كان عليه، بؤس وشقاء ومخاطرة، حيث تضطره ظروفه المادية المتردية إلى ممارسة عملية التهريب وهو نشاط غير شرعي يتم من خلاله إدخال سلع ممنوعة أو إخراجها بشكل مخالف للقانون، وهو حل وحيد بالنسبة له يتجاوز التناقضات التي يعاني منها. غير أن هذه الرغبة الملحة تصطدم بمطاردة الجمارك في سعيهم للحد من عملية التهريب التي تستنزف اقتصاد البلاد، وتنتهي المطاردة بحجز البضائع المهربة وبفشل *صالح* في هذه المهنة. حتى وإن فكر في هجر التهريب، فإن نضاله بالأمس سيقف حائلا دون ذلك، فقد اعتبر رجلا خطيرا تماما كما كانت فرنسا تعامله بالأمس، ويحرم من أبسط حق من حقوقه، الحق في عمل شريف قار، ويبدو أن مهنة "الترابندو" قدره الذي لا يفارقه.

تصور رواية (نوار اللوز) تصويرا واضحا لهذا الريف الذي رآه الكاتب بائسا بفعل فاعل فتغريبة بني هلال، و تغريبة *صالح بن عامر الزوفري* المعاصرة قد ركبتا تركيبا مزجيا محكما وذكيا حتى يختلط الأمر على القارئ فيصعب عليه التمييز بين العناصر المتقابلة في الروايتين ولايدري أين هو؟.

"قبل قراءة هذه الرواية التي قد تكون لغتها متعبة، تنازلوا قليلا واقرأوا تغريبة بني هلال ستجدون تفسيرا واضحا لجوعكم وبؤسكم".[1]

هذا الكاتب المتمرس بعمليات التضمين والتناص المنهجي المدروس والمقصود، جعل يكتب أحداث روايته المعاصرة مسترجعا أحداث السيرة الهلالية القديمة وكأنه يبعث القديم في ثوب جديد.

"مايزال بيننا حتى وقتنا هذا الأمير *حسن بن سرحان* و*ذياب الزغبي* و*أبو زيدا الهلالي* و*الجازية* (...) فمنذ أن وجدنا على هذه الأرض وإلى يومنا هذا والسيف لغتنا الوحيدة لحل مشاكلنا المعقدة".[2]

هذا التفاعل في كيمياء هذه الرواية، استطاع أن يسجل من خلاله الكاتب قانونا قد

نسميه قانون الإعادة والامتداد، فما يحدث في الزمن الحاضر هو امتداد للزمن الماضي و إعادة له، لكن بوسائل العصر. فالصورة المشتركة هي الوضع الاجتماعي المزري و المشاكل المعقدة. فهذه الفئة من المقموعين والذين مورس ضدهم القهر والظلم غير قادرة على رد كل هذا أمام جيروت الفئة الظالمة التي تملك القدرة على القمع، والتي لاتعترف بالحوار والممارسة الفكرية، مما يعني انسداد كل قنوات التواصل بين الحاكم والمحكوم فالقطيعة هي السمة البارزة.

فشخصيات[3] *سرحان* و *ذياب الزغبي* و *أبو زيد الهلالي* تمثل مرجعية، لاتزال حاضرة على المستوى المجازي، بين عناصر الفئة المحكومة تملك السلطة والسيف ذكرها جاء في سياق الحاضر الذي يتميز بالقمع والعنف. إن بادية بني هلال في الحجاز المتشابهة مع ريف *صالح بن عامر* في قرية مسيردة إبان الاحتلال للجزائر وبعد الاستقلال، منطقتان تعرضتا لسوء تدبير الحاكم وإهماله فلحقهما البؤس والشقاء وشظف العيش.

"و حتى لا أثقل عليكم (...) أقول إن أحداث هذه الرواية هي من نسيج الخيال بشكل من الأشكال وإذا ورد أي تشابه أو تطابق بينها وبين حياة أي شخص أو أية عشيرة أو أية قبيلة أو أية دولة على وجه هذه الكرة الارضية، فليس ذلك من قبيل المصادقة أبدا".[4]

إذن فهذا التطابق مقصود أي بين النص والواقع وعملية موجهة "ولايعني التطابق هنا إلا عمق الصلة الرابطة بين التاريخ والواقع، ومن خلال ذلك يتحقق الامتداد، فالتاريخ كواقع مضى يجد امتداده في واقع مايزال حيا ومعيشا".[5]

فالذي اضطر بني هلال للخروج من باديتهم والبحث عن مصدر للرزق، هو الذي اضطر *صالح بن عامر* ومن معه لنشاط التهريب على الحدود المغربية، تأمينا لمصدر الاسترزاق حفظا لحياتهم.

"لا أهرب إلا لأعيش".[6]

"مجبرون يا أخي أن نسرق أو نموت جوعا".[7]

"لاشيء في هذا الحي غير البرد والجوع".[8]

إن صورة الجوع والبؤس والبطالة التي تطبع سكان حي "البراريك" ومنهم *صالح بن عامر* هي المبرر لانتقاله إلى ممارسة نشاط التهريب باعتباره الحل الوحيد الذي يمكنه به تجاوز الحالة ولكن هذه المغامرة لايكتب لها النجاح، حيث تشدد الجمارك الرقابة على نشاط المهربين ويقع

صالح بن عامر و *العربي* في قبضتهم، ويتم حجز البضائع المهربة بحجة أنها ممنوعة ويحولان إلى مركز الشرطة.

"سقطت في مهنة تعسة لم أطلبها".[9]

إنه التناقض الذي لايستطيع أن يجد له *صالح بن عامر* تفسيرا، فهو يكره هذه المهنة ولكنه في نفس الوقت لايجد عنها بديلا، إنها وسيلته الوحيدة لضمان وجوده إنه يعلم بأن هذا العمل غير شرعي، بل إنه يقود إلى الموت.[10]

"نقلت مضارب خيامها إلى حدود الموت".[11]

"الميزيرية الكحلة والترابندو والموت".[12]

إن كراهية *صالح بن عامر* لهذا العمل رغم حاجته إليه تدفعه إلى التفكير في إيجاد عمل آخر بديل عنه، عمل شرعي لا يكابد فيه المخاطر ولا يشعر فيه إلا بالأمان والاستقرار، وبالتالي يخرجه من حالته المأزومة:

"سأتركها حتما، سأتزوج لونجا إذا وجدت شغلا مناسبا".[13]

"غدا سأبحث عن العمل، سأنزل إلى البلدية".[14]

تأكدت هذه الرغبة في الابتعاد عن اللاشرعي من الأعمال، ونقصد به هنا التهريب، لقد رفض *صالح* تهريب أغنام *السبايبي* نحو الحدود المغربية. صحيح أن فرصة تصيد عمل شريف وقار ضئيلة، بل ومستحيلة في قرية مسيردة التي مورس ضدها التهميش والإهمال خلال فترة الاستعمار على جميع الأصعدة، وبعد الاستقلال أيضا، والنتيجة بقاء الحال على ما كان عليه بؤس وشقاء وسكنى "البراريك"، المخاطرة... مع ذلك يبقى هناك أمل، إنه المشروع الجديد الذي سيتبناه *السبايبي*، غير أن توظيفه مرتبط بتاريخه النضالي:

"قالوا أن ماضيك يكتنفه الغموض وقد وصلتني نسخة مصورة من ملفك القديم (...) مكتوب عليها... Element dangereux عنصر خطير".[15]

لقد أقصي *صالح* من قائمة عمال السد لأنه عنصر خطير، كان في الماضي يهدد كيان المستعمر، بل ويملك القدرة على تهديد وجودهم، ويبدو أنه ما يزال في نظرهم يملك القدرة على تهديد الفئة المالكة لجهاز السلطة. إذن فلا شيء تغير ما بين الأمس واليوم.

"يا سيدي ماذا تغير؟ "*بيار*" راح موح جاء".[16]

إنهم يدفعون به دفعا نحو العودة إلى ممارسة مهنة المخاطر، مهنة التهريب.

إن بؤس حياة الريف في رواية (نوار اللوز) عارض له أسبابه، ولعل الذي يؤكد هذا الكلام ما صدر به الكاتب روايته، وهي مقولة اقتطفها من كتاب (إغاثة الأمة في كشف الغمة) *للمقريزي* حيث يؤكد في هذه المقولة أن بؤس الأمة راجع إلى قهر الحكام وغفلتهم وعسفهم:"من تأمل هذا الحادث من بدايته إلى نهايته، وعرفه من أوله إلى غايته علم أن ما بالناس سوى تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد".(17)

يؤرخ *المقريزي* في كتابه هذا للمجاعة التي ظهرت في مصر والدول الإسلامية، ويحلل الظاهرة تحليلا علميا قائما على مبدإ السببية. فالمجاعات ظواهر اجتماعية لها أسبابها التي تؤدي إلى حدوثها ومتى زالت هذه الأسباب لم تكن هناك مجاعات. فأما أسبابها فيردها المقريزي إلى ضعف السلطة السياسية وانصراف الحكام عن الاهتمام بشؤون الرعية وبالتالي تنقطع كل صلة بين الحاكم والمحكوم، واستحالة العلاقة إلى قمع واضطهاد.(18)

"لا شيء في هذا الحي غير البرد والجوع".(19)

"مع قدوم كل شتاء تقطع هذه الزنكات المنتشرة على الأسطح رؤوس خلق الله أوتشرد عائلات بأكملها".(20)

كل شيء في هذا الحي يشير إلى حالة البؤس والشقاء، فبالإضافة إلى الجوع والبرد هناك الموت الذي يترصد العائلات التي تقطن هذا الحي، إنها "الزنكات" التي تعدت وظيفتها الأصلية وهي حماية ساكني "البراريك" من الأمطار وبرد الشتاء، وحر الشمس صيفا لتتحول إلى قاطعة للرؤوس حين تقذف بها الرياح لتصنع ديكورا من الحزن ينضاف إلى صور الشقاء التي تزين الحي.

في الحديث عن هذا الحي يبدو تأثر *واسيني الأعرج* برواية أمريكا اللاتينية واضحا خاصة رواية (السيد الرئيس) (Monsieur le Président) للروائي الغواتيمالي *"ميغال أنخل أستورياس"(M.A.Asturias)* في الفصل الثالث "ناس البراريك" فهؤلاء أناس متراصون في بيوت "الزنك" يعيشون قذارة وجوعا وفقرا:

"تقودهم أحيانا عواطفهم فلا يفكرون لحظة في العاقبة، يتقاتلون من أجل أتفه الأسباب".(21)

وهو حال ناس "رواق الرب" في رواية (السيد الرئيس).(22)

"يلعبون بدمنا ويوزعونه على أغنياء البلد أوراقا وفيلات وكباريهات ومراقص".[23]

لم تكن حالة أهل "البراريك" لتؤول إلى هذا التردي لو أن الحكام عرفوا كيف يعدلون، إنهم أحالوا القرية إلى عالمين متقابلين، عالم يعيش العوز والفقر، (عالم الفقر والموت) وعالم يعيش الترف و يشكو التخمة إنه (عالم الغنى والحياة).

"لو كانت أراضي نجد خصبة ووزع خصبها بالعدل، ما ركبت *الجازية* سرج عودها ونقلت مضارب خيامها إلى حدود الموت".[24]

يلتقي الماضي بالحاضر في النتيجة، التهريب والهجرة والموت والسبب واحد هو تكريس عدم التواصل بين الحاكم والمحكوم. حياة *صالح* البائسة إذن لم تتغير، وهو الذي شارك في الثورة وكان يطمح-على الأقل- في حياة كريمة بعد الاستقلال ينعم فيها بالحرية وبعمل شريف يؤمن له الحياة، غير أن تلك الأحلام يراها تتبخر أمام عينيه، فها هو الآن يشارك سكان حي "البراريك" حياتهم يشكو قلة ذات اليد، ويخاطر بحياته من أجل تمرير سلع ممنوعة بقوة القانون عبر الحدود، في المقابل هناك من استفاد من فترة الاستعمار حين كان مواليا له (سليل القياد) ويناصب العداء للثورة ومع ذلك فقد استفاد بعد الاستقلال أكثر مما استفاد الوطنيون الأحرار، لقد كون شبكة علاقات وأصبح من أصحاب القرار إنه *السبايبي* أياديه طويلة حتى وهران والعاصمة والبلدان البعيدة والقريبة".[25] فهو لا هم له سوى تنمية ثروته على حساب الفقراء من أهل القرية، يملك الأراضي ويسعى للمحافظة عليها بكل الطرق والوسائل غير الشرعية خوفا من تأميمها، ثم هو مهرب يشكل همزة وصل بين المهربين والمسؤولين الكبار على مستوى الجهاز الحكومي، إنه محتكر ويهرب الممنوع من السلع والمواشي من وإلى المغرب.

"فهو يحتكر التجارات الكبيرة مع كبار المسؤولين".[26]

"أنا متأكدة أنهم كبار".[27]

كما يجد *السبايبي* كل السهولة في ممارسة مهنته المفضلة وهي التهريب لأن المسؤولين يوفرون له الحماية الكافية، على خلاف كثير من المهربين الفقراء الذين يذهبون ضحية مخاطرتهم ويقعون في شرك الجمارك وشرطة الحدود، ويودعون السجن.

"وراءهم من يحميهم".[28]

"توفير الويسكي (...) للمسؤولين".[29]

غير أن *عامرا* رفض أن يكون عبدا، وأن يكون من الفئة التي تخضع لأوامر ورغبات *السبايبي*، فقد رفض أن يهرب له المواشي إلى المغرب.

"لا يا *السبايبي* لسنا بالبساطة التي تتصورها".[30]

"رفضت *السبايبي* ورفضت أن أتحول إلى أحد عبيده".[31]

"لست *أبا زيد الهلالي* تحركه في إصبعك كخاتم *سليمان*".

رفض *صالح بن عامر* مشروع *السبايبي* يكشف عن وعي *صالح* و إدراكه بأن أمثال *السبايبي* يستغلون الفئة الفقيرة التي تخاطر بحياتها خدمة لهؤلاء الذين يرمزون إلى السلطة وقد يحدث أن يكونوا سبب مصائبهم و أرزائهم التي لا تنتهي :

"إنها الوجوه الشرسة التي أرزأتنا في أعز أحبابنا".

هذه الوجوه التي لعبت بدم الشهداء و وزعته "فيلات" و"كباريهات" على الأغنياء .فلا فرق إذن بين *صالح بن عامر الزوفري* و بين *أبي زيد الهلالي*، الأول رضي بالوضع والنظام القيمي الذي كان من صنيع فئة تملك السلطة والنفوذ، والثاني لم يرض بالوضع فتمرد عليه وعلى الموروث، ففي نظره أن *السبايبي* امتداد للماضي ووجه من وجوهه شهد مقتل *الجازية* غدرا، "لا يالسبايبي (...) فبيننا دم الفقراء *والجازية* التي قتلت غدرا".[34] لهذا وقف منه *صالح* موقف الحاقد الذي يريد أن ينتقم منه بما أنه يكرس الظلم و الاستغلال.

خاتمة:

إن رغبة الكاتب في تقديم عالم الريف، هذا العالم المنسي المهمش والخارج عن دائرة الاهتمام تقديما مرضيا للناس، ذلك أن الخطاب الريفي يسعى إلى متلقي مختلف هو المتلقي المديني، إنما أراد عبر مجموعة من الإشارات والدلائل إلى التأكيد على المعاناة وبقاء الحال كما كان عليه، على الرغم من الأحداث الكبرى التي مر بها الريف الجزائري، فقد شهد ثلاث درامات أساسية: الأولى هي حرب التحرير وما خلفته من تأثيرات، وصعود طبقة الاقطاعيين فيما بعد، والثانية تتمثل في التحولات الجذرية التي عرفتها البلاد ممثلة في الثورة الزراعية وترسيخ مبدإ "الأرض لمن يخدمها" وسلسلة التأمينات التي طالت طبقة الاقطاعيين، وأخيرا كارثة الانفتاح الاقتصادي ووصول آليات السوق والخوصصة إلى الريف الجزائري، ومع ذلك لا يزال يرتب آخر الاهتمامات، وتظل نفس الذهنية الراكدة ركود الحياة في الريف هي

المسيطرة تسعى جهدها لتبقي كل الذرائع بابا لديمومة الحال بالقوانين الجائرة والاستغلال المفضوح ينطبق عليها قول *صالح بن عامر الزوفري*: "لم يتغير شيء راح "*بيار*" جاء *موح*"، فالحرب التي صنعها فقراء الريف حولها الأغنياء والانتهازيون إلى مشروع استثماري.

الهوامش:

1- واسيني الأعرج: نوار اللوز، منشورات الفضاء الحر، الجزائر، 2002، ص: 5.

2- الرواية، الصفحة نفسها.

3- رشيد بن مالك: نوار اللوز، سيميائية النص الروائي، مجلة المساءلة، العدد الأول، اتحاد الكتاب الجزائريين، 1991، ص:108.

4- الرواية، ص:5.

5- رشيد بن مالك: المرجع السابق، ص:110.

6- الرواية، ص:28.

7- الرواية، ص:.118.

8- الرواية، ص:19.

9- رشيد بن مالك: المرجع السابق، ص:114.

10- الرواية، ص:21.

11- الرواية، ص:17.

12- الرواية، ص:52.

13- الرواية، ص:141.

14- الرواية، ص:150.

15- الواية، ص:199

16- الرواية، ص:5-6.

17- رشيد بن مالك: المرجع السابق، ص:110-111.

18- الرواية، ص:19.

19- الرواية، ص:160.

20- الرواية، ص:106.

21- ينظر كمال الرياحي في حوار مع الكاتب، مجلة عمان الثقافية، الأردن، عدد 96، جانفي2003

22- الرواية، الصفحة نفسها.

23- الرواية، ص:94.

24- الرواية ، ص:18.

25- الرواية، الصفحة نفسها.

26- الرواية، الصفحة نفسها

27- . الرواية، الصفحة نفسها.

28- الرواية، ص:53.

29- الرواية، الصفحة نفسها.

30- الرواية، ص:142.

31- الرواية، ص:35